المحاضرة الأولى

مدخل نظري:

مفهوم نظرية الأدب

د.طارق بوحالة

تمهيد:

يعد الأدب هو الخطاب الأساسي الذي تبحث فيه نظرية الأدب، والأدب من المفاهيم التي عرفت تطورا منذ قرون سواء عند العرب أو عند الغرب، وتعد نظرية الأدب اختصارا مفاهيميا لما يسمى "نظريات الأدب"، ومنه سنحاول في هذه المحاضرة الحديث عن مفهوم نظرية الأدب وحدودها المعرفية، وعلاقتها بالدراسة الأدبية في مفهومها الشامل.

1-الأدب والدراسة الأدبيّة:

تحاول الدراسة الأدبيّة البحث في الأدب باعتباره خطابا إبداعيّا، له خصائصه الفنيّة واللغويّة والتي تميزه عن الخطابات الأخرى، ويسبق ظهور الأدب ظهور الدراسة الأدبية التي هي بمثابة "خطاب ثان" ينشأ حول هذا الخطاب الأول. بمعنى أن الدراسة الأدبية -ومنها نظرية الأدب- هي خطابات واصفة لخطابات سابقة تتصف بأنها خطابات أدبية مدتها تخيلية.

لهذا يرى رينيه ويليك وأوستن وارين في كتابهما "نظرية الأدب" أنه " علينا أن نميّز بين الأدب والدراسة الأدبيّة، فهما فعاليتان متمايزتان، إحداهما فن، والأخرى، إذ لم تكن بالضبط علما، فهي ضرب من المعرفة أو التحصيل ."[1]

إذن فالأدب فن تخييلي، مادته تجمع بين الواقع والمتخيل، وهو يعتمد على اللغة الأدبية ذات الطبيعة الإيحائية والمجازية، بينما تعد الدراسة الأدبية ضربا من المعرفة، مادتها هي الخطاب الأدبي ووسيلتها هي اللغة الواصفة. ومعنى الواصفة هو لغة تصف وتحلل لغة سابقة عنها وهي لغة الأدب، أو اللغة الأدبية. ويمكن أن تشمل الدراسة الأدبية مجال النقد الأدبي ونظرية الأدب وحتى تاريخ الأدب. فالنقد الأدبي مثلا هو "أدبي لأن موضوعه دراسة الأدب"

و"مع أن تجربة الإبداع الأدبي مفيدة للدارس فإن مهمته تختلف تمام الاختلاف، إذ عليّه أن يترجم تجربته في الأدب إلى مصطلحات فكرية وأن يتمثلها ويحولها إلى خطة متماسكة يجب أن تكون عقلانية إذا كان لها أن تعد نوعا من المعرفة. وربما كان صحيحا أن مادة دراسته لا عقلانية أو أنها تتضمن على الأقل عناصر قوية غير عقليّة، ولكنه لن يكون إذ ذاك إلا في مركز مماثل لمركز مؤرخ الرسم أو الموسيقى، أو عالم الاجتماع أو التشريح بالنسبة لهذه المسألة."[2]

وتتميز لغة الأدب عن لغة الدراسة الأدبية، حيث إن الأدب يتوسل بلغة شعرية ومجازية ورمزية وإيحائية، بينما تحاول الدراسة الأدبية استعمال لغة اصطلاحية ترنو إلى العلميّة.

2-مفهوم نظرية الأدب:

نظرية الأدب هي خطاب معرفي واصف ينشأ حول خطاب الأدب، ويمكن أن تعرف نظرية الأدب بأنها "هي مجموعة من الآراء والأفكار القوية والمتسقة والعميقة والمترابطة، والمستندة إلى نظرية في المعرفة أو فلسفة محددة، والتي تهتم بالبحث في نشأة الأدب وطبيعته ووظيفته، وهي تدرس الظاهرة الأدبية بعامة من هذه الزوايا في سبيل استنباط وتأصيل مفاهيم عامة تبين حقيقة الأدب وآثاره."[3]

وتتكون نظرية الأدب من مجموعة من الآراء والأفكار العامة التي تستند على نظرية في المعرفة أو فلسفة ما، وهو ما سنجده في مختلف النظريات الأدبية التي سندرسها، ومنها نظرية المحاكاة التي تستند على الآراء الفلسفية لكل من أفلاطون وأرسطو، ونظرية التعبير التي تسند إلى الفلسفة المثالية عند كل من كانط وهيجل، ونظرية الانعكاس التي تستمد مقولاتها من الطرح الماركسي...الخ.

ويشير مفهوم النظرية عادة إلى....التأمل، ولكن كلمة النظرية ليست مرادفا لكلمة التخمين...كما تحيل عبارة " نظريتي أن" أنها تقدم شرحا غير واضح...أما النظرية في الدراسات الأدبية فهي ليست تقريرا عن طبيعة الأدب أو مناهج دراسته، وإنما هي مجموعة من الممارسات في التفكير والكتابة لها حدود يصعب للغاية وصفها... [4]

يحاول منظرو الأدب ممارسة عمليّة التأمل والتفكير في الظاهرة الأدبيّة، واستخراج القوانين العامة التي تتحكم في

تشكلها. كما تثير نظرية الأدب جملة من الأسئلة الأساسيّة التي ترتبط بماهية الأدب وطبيعته ووظيفته، أي إنها تبحث في ماهية الأدب وتعريفاته عبر العصور، والبحث في طبيعته ومصادره وما يقدمه من وظيفة داخل المجتمعات المختلفة. ولهذا فقد ظهرت عدة نظريات أدبية كل واحدة حاولت التعامل مع الظاهرة الأدبية من جهة معينة.

الهوامش:

1-رونيه ويليك وأوستن وارين: نظرية الأدب، ترجمة محي الدين صبحي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط 1، 1981، ص 13
2-المرجع السابق، ص 13.

3-شكري عزيز ماضي: في نظرية الأدب، دار الحداثة، بيروت، ط 1، 1986، ص 12، 13

4-ينظر جوناثان كولر: النظرية الأدبية، ترجمة مصطفى بيومي عبد السلام، دار ميم، الجزائر، ط 1، 2016، ص 18، 19